



قال لي والدي مرّة، و كنت فتى في العاشرة، إن الفرق بين الاستعماريين البريطاني والفرنسي أن البريطانيين مخلصون لحلفائهم وعملائهم، بينما لا يأبه الفرنسيون بذلك. والدي من مواليد 1910، وتوفي في 1992، وكان اعتزل السياسة والحياة العامة قبل ذلك بعدين. الرؤساء الأميركيون بالنسبة له هم فرانكلين روزفلت، ودوایت آيزنهاور، وجون كينيدي. وكان آخر عهده بالسياسة، حين انفجرت فضيحة ووترغيت، فراح يشتكي لرفاقه عن المستوى الذي وصلت إليه الحال في السياسة العالمية. لم ينتظر والدي ليرى تردي السياسة الأميركيّة في عهد ريجان، وجورج بوش الابن، وباراك أوباما. وكان من حسن حظه أنه لم يسمع باسم دونالد ترامب، الرجل الذي ساق البراغماتية الأميركيّة إلى مستوى لم تعرفه سابقاً من الانحطاط الأخلاقي والإفلات السياسي.

الفرق بين براغماتية ترامب وبراغماتية الرؤساء الآخرين أن سابقيه كانوا، على الأرجح، يضعون أميركا (أو جزءاً منها) في بالهم، وهو يصنعون قراراتهم، فيما لا يضع ترامب نصب عينيه سوى مصلحته الفردية الضيق، وما يحيط بها من عائلة وأعمال ومال. لا يكتثر لمبدأ، ولا يحترم قيمة، ولا يراعي صديقاً أو حليفاً. لم يرفّ له جفن، وهو يتخلّى عن كبير موظفي البيت الأبيض الذي كان يلمّ القذارة التي يخلفها ترامب في كلّ حركة يقوم بها، ورمي وراء ظهره كلّ مساعديه الذين يحقق معهم المحقق المستقلّ، روبرت مولر، في فضائح التآمر مع روسيا .

ومع ذلك، لا شيء يمكن أن يقارن بالخطوة التي أعلن عنها قبل أيام: سحب قواته من سوريا، والتخلّي عن السوريين عموماً، والأكراد في شمال شرق سوريا خصوصاً. وهو استخدم أكراد سوريا كما يستخدم أي لاعب ورق محترف ورقة الجوكر، فحصد من ورائها ما حصد، ثمّ رمى بها بعيداً، وجمع نقوده ومضى، لا يلوّي على شيء.

هل كان قرار ترامب مفاجأة؟ نعم ولا. نعم، لأن ترامب نفسه وإدارته توصلوا قبل أشهر فقط (سبتمبر/أيلول) إلى استراتيجية أميركية جديدة في سوريا، تقضي ببقاء غير محدود للقوات الأميركيّة في سوريا، حتى نهاية تنظيم الدولة الإسلامية نهاية تامة، وحتى (وأرجو الانتباه جيدا) سحب إيران قوّاتها، والكفّ عن التدخل المستمرّ في السياسة السوريّة. وكم كان جيمس جيفري مبعوثه الخاص لسوريا فخوراً وهو يتقدّم بذلك، حتى قبل أيام.

ونعم، لأنّ معظم مساعدي ترامب لم يكونوا موافقين على القرار، بدءاً بوزير الدفاع المُحذّك، جيمس ماتيس، الذي استقال الخميس الماضي، احتجاجاً على انسحاب ترامب من سوريا، وانتهاءً بأعضاء الكونغرس من الجمهوريّين والديمقراطيّين. وجاء انتقاد هذه الخطوة من أقرب المقربين إلى الرئيس، والمدافعين عنه. "إنه خطأ كبير"، هكذا كتب السناتور الجمهوري، ماركو روبيو، من فلوريدا، على "تويتر"، متابعاً، "إذا لم يتم إيقاف ذلك، سوف يطارد هذه الإدارة وأميركا لسنوات مقبلة". أما حليف ترامب، السناتور ليندسي غراهام، الجمهوري، من ولاية كارولينا الجنوبيّة، فدعا إلى عقد جلسات استماع للكونغرس بشأن القرار.

وحدّدت صحيفة واشنطن بوست الرابحين من قرار الرئيس ترامب بأربع فئات: إيران وروسيا وبشار الأسد وتنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، بينما حدّدت الخاسرين باثنين: الأكراد وإسرائيل، ناسية طبعاً السوريين بعمومهم، فهم لا يشكّلون كبرى فرق.

لم تكن الخطوة مفاجئة جداً من منظور آخر، فنحن لم نعرف عن ترامب يوماً اهتماماً حقيقيّاً بأي قضية أو شعب أو مهمّة. وإن كان ثمة ولاء حقيقي لترامب، سوّي ولائه لنفسه وشركاته، فهو للرئيس الروسي فلاديمير بوتين. وقد توصلّ بوتين وتركيا إلى اتفاق فيما يخصّ الشمال السوري، ولا يتعيّن على الولايات المتحدة أن تعيق ذلك الاتفاق.

وفي يونيو/حزيران 2017، قال السفير الأميركي السابق في سوريا في مقابلة مع صحيفة الشرق الأوسط: "أعتقد أن ما نقوم به مع الأكراد ليس فقط غباء سياسياً، بل غير أخلاقي". الأميركيون استخدمو الأكراد سنوات طويلة خلال حكم صدام حسين". هل تعتقد أن الأميركيين سيعاملون حزب الاتحاد الديمقراطي، ووحدات حماية الشعب، بشكل مختلف مما عامل (وزير الخارجية الأميركي الأسبق) هنري كيسنجر للأكراد العراقيين (عندما تخلى عنهم)؟ "بصراحة، مسؤولون الأميركيون قالوا لي ذلك. الأكراد السوريون يقومون بأكبر خطأ عندما يضعون ثقتم في الأميركيين".

وبعد ذلك بسنة، كتب صاحب هذه السطور في "العربي الجديد" أن المبعوث الخاص الأميركي إلى التحالف العالمي لهزيمة داعش، بريت ماكغورك، قرر أن يستخدم الكرد رافعة للحرب على التنظيم الإرهابي، رافضاً التعاون مع المكونات السورية الأخرى. ونجحت "قوات سوريا الديمقراطية" ووحدات حماية الشعب، في إزالة "داعش" من منبج، بعد أن عبرتا نهر الفرات، وخاضتا، خلال أكثر من ثلاثة أشهر في صيف عام 2016، معارك ضارية وصعبة للغاية ضدّ "داعش"، فقدنا خلالها نحو ثلاثة مقاتل. ومنذ ذلك الحين، خفت، إلى حدّ كبير، حدة العمليات الإرهابية في العالم، ومن ثمّ بدأت قبضة "داعش" تفلت في سوريا، إلى أن تمّ القضاء عليه نهائياً. في الوقت نفسه، بعد معركة منبج، بدأت تركيا في تلك المنطقة عملياتها المسمّاة "درع الفرات"، والتي دعمت فيها تركيا قوى المعارضة، وقامت، فيما بدا أنه غضُّ طرفٍ من الأميركيان والروس، بتطهير هذه المنطقة المسمّاة جيب منبج من "داعش". وبذلك أحكمت إغلاق الزجاجة، حيث كان "داعش" يحاول التسلل داخل سوريا وخارجها. ليس هذا الأسلوب غريباً على واشنطن، وليس غريباً أيضاً أن يقع الكرد مرّةً ومرّةً في هذا المطب. لقد عانوا عقوداً طويلاً جداً من سياسة تميّز قوميًّاً ومجتمعيًّا من نظام "البعث" الحاكم في سوريا، لذلك حين فتحت أمامهم أبواب النجاة، ما كان عليهم سوّي أن يخرجوا منها.

ولم يكن ذلك بدون ثمن، فقبل يوم واحد، وقعت تركيا اتفاقاً مع الولايات المتحدة لشراء 80 صاروخاً من طراز باتريوت بقيمة 3.5 مليار دولار. هو سعر معقول للتخلي عن الأكراد، وترك سوريا لإيران وترك الأكراد لتركيا. وما على الرئيس أردوغان الآن سوى التفكير في صفة ينتج عنها تسليم خصمها التاريخي فتح الله غولن. ولم لا؟ إنه عالم خالٍ من القيم. إنه عالم تراث.

المصادر:

العربي الجديد